لماذا هذا الاهتمام الكبير فيما يتعلق بالتليفزيون والأطفال . . ؟

من اللحظات المبكرة في حياتها، كان التليفزيون هناك، أمام ابنتي، وإن لم تعرفه بشكل سريع، لقد كان ذلك الجهاز الرائع جزءاً من عالم ابنتنا الصغرى هذه حين دخلت الحياة من خمس سنوات مضت.

لقد كان بيت «جيسيكا Jessica» -ابنتي- مثل معظم البيوت التي حوله . . لا يكاد يختلف عنها، فلقد خصصت به حجرة كاملة يشار إليها دوماً على أنها «حجرة التليفزيون The TV Room» . . . ولقد امتلأت هذه الحجرة بقطع الأثاث التي برزت من بينها قطعة رمادية نظمت حولها القطع الباقيات لتناسب الجلسة حول جهاز التليفزيون.

وخلال ساعات من وصول «جيسيكا» إلى المنزل* كان هذا الجهاز المثير ذو الصخب العالي قد شد انتباهها، ومما لا شك أنه يسلينا ويملأ أوقات فراغنا بحياة خاصة مثيرة زاهية الألوان لا يستطيع أن يقدمها جهاز آخر. وليس عجيباً أنني

* يقصد المؤلف وصول ابنته من المستشفى، حيث وضعتها أمها هناك، مثل كل النساء الأمريكيات.

وزوجتي كان علينا أن نقرر: هل سندع جهاز التليفزيون كي ينشِّئ ويرعى ابنتنا «جيسيكا»، ويصبح أفضل أصدقائها، وكان علينا أن نفكر فيه وفي أمره معها، هل سيوسّع خبرتها ويعمقها، أم أنه سوف يسرق شبابها..؟

حقاً، إن التليفزيون كان هناك.. منذ البداية، تماماً كما هو الوضع العادي بالنسبة لأطفال الأمة الأمريكية، حيث هو معهم منذ أيامهم الباكرة، كما أن هناك مجلة صغيرة، تسمى دليل التليفزيون TV Guide*، وهي تعد جزءاً من البيئة المحيطة بمعظم أطفالنا كذلك. وهي مجلة تتغير كل أسبوع، وتدخل البيوت الأمريكية أكثر من أية مجلة أخرى.

لقد عوّدنا أبناءنا على أن يأكلوا في حجرة معينة، حيث نمدهم بصوان مستطيلة للطعام، ورغم عدم مناسبتها أصبحت ملازمة للجلوس أمام التليفزيون، بحيث نطلق عليها «صواني التليفزيون TV Trays». ولقد كان أطفالنا الصغار -قبل ذلك- يزحفون من تحتها، أو يلعبون من فوقها، أما الآن فاستخدامها الأساسي هو لتناول الطعام عليها أمام التلفزيون.

---

* هي مجلة من القطع الصغير، وقد تصل مائة صفحة، وهي تشتمل على جميع برامج التليفزيون التي تقدمها محطات التليفزيون المختلفة، وأوقات بثها.. المترجِم.

وفي غالب بيوتنا نجد أن هناك جهازاً آخر للتليفزيون، ويكون في العادة أصغر من الجهاز الأول، ويوضع في حجرة النوم، وأعترف أني أنا وزوجتي قد عرف عنا أننا نتناول في مناسبات عديدة طعام العشاء على صواني التليفزيون هذه، بل أكثر من ذلك في الليلة نفسها التي نتناول فيها هذا العشاء، قد نتناول -في وقت متأخر- وجبة أخرى خفيفة من الطعام السريع Snack.

وعلى أي الأحوال، لا أعد نفسي، وكذا أطفالي الثلاثة غير مدمنين للتليفزيون TV addicts، على الرغم من أنهم نشّئوا في عصر الفيديو، ولكني أشاهد التليفزيون بعض الوقت، وكذا هم يفعلون.

ونتيجة لهذا الوضع أعتقد أني في موقع طيب يسمح لي بأن أتحدث عن التليفزيون والأطفال معاً، بطريقة أفضل من كثير من الكتّاب الذين يكتبون عن هذا الموضوع، في حين أنهم لم يشاهدوا تليفزيوناً ولم يتعاملوا مع أثره في حياة الأطفال.

إن التليفزيون جهاز ذو إغواء كبير، كما أنه مجاني ومتاح للجميع دون استثناء، وعوامل جاذبيته وإغرائه غير محدودة.. وهي لا تتحدد بالإقليم، ولا بالسن، ولا

بالمستوى الاقتصادي أو الاجتماعي . . إنه متاح لأصغر أطفالنا أعماراً، وهو كذلك بالنسبة لأكبر مواطنينا سناً، متاح للأصم وللأعمى على السواء . بل إن الأفراد القلائل في مجتمعنا الذين لا يشاهدون التليفزيون -وهذا أمر مدهش- يعرفون الكثير عنه، ومن هنا نقول : ليس هناك فرد لم يتأثر به، أو يمكن أن يكون غير واع به وبما يمثله .

ولنتحدث على سبيل المثال عن المسلسل التليفزيوني الأخير M.A.S.H أو عن حلقاته الأخيرة التي بثت عام ١٩٨٣م، إذا لم نكن قد شاهدنا الحلقة مرة واحدة في الأسبوع، فمن منا لم يقرأ ما كتب عن تلك الحلقات في الجرائد والمجلات؟ أو من منا لم يستمع إلى أغاني تلك الحلقات من أجهزة الراديو؟ بل أكثر من ذلك من منا لم يشاهد الأشياء التذكارية عن الحلقات نفسها والتي كانت تباع في المحلات، بل إننا شاهدنا كثيراً من الناس وقد ارتدوا قمصاناً خارجية قصيرة الأكمام، وعليها شعار مسلسل M.A.S.H وقد توجهوا لحضور حفلات خاصة أقاموها لهذا المسلسل . أنا شخصياً لم أشاهد الحلقات الأخيرة من هذا المسلسل، ولكني على وجه اليقين كنت واعياً بأنها أذيعت من خلال ما سمعت وما شاهدت حولها .

إن من نشاطاتي المفضلة مع الشباب الصغار (يمثلهم طلاب المرحلة الثانوية) أن أستقصي إذا كان بين جماعاتهم شخص واحد لا يشاهد التليفزيون نهائياً، أو يشاهده قليلاً.

وحينما أعثر على ضالتي من هؤلاء أسأل الشخص أو الشخصين اللذين يقولان إنهما لا يشاهدان التليفزيون: هل سمعا عن «كوجاك Kojak»*؟ فتأتيني الإجابة بأنهما يعرفانه، فأطلب منهما وصفه.. فيصفانه..!! وحينئذ أسألهما أن يكملا عبارات معينة حذفت منها كلمات مثل:

«أنا أحب...».

«مورك Mork و...».

«... المخاطرات».

ولقد كانا يجيبان عن هذه الأسئلة الثلاثة إجابات صحيحة، وكنت في بعض الأحيان أطلب منهما أن يستخرجا صورة «جي. آر. يوينج J. R. Ewing»** من بين عشر صور أخرى، وكانت تأتيني إجاباتهم صحيحة..

* ممثل أمريكي شهير، وصاحب حلقات بوليسية تذاع أسبوعياً.

** ممثل أمريكي أشهر، وصاحب حلقات تليفزيونية اجتماعية تسمى Dallas، وهي تذاع أسبوعياً منذ نحو عشرين عاماً إلى الآن، وقد غطت شهرتها وبثها جميع أنحاء العالم تقريباً.. المترجم.

في المرة الثالثة، وهؤلاء هم الطلاب الذين كانوا يقولون: إنهم لا يشاهدون التليفزيون، وأعتقد أن النقطة التي نريد تسجيلها هنا قد أصبحت واضحة تماماً من إجابات هذه المجموعات من الطلاب، وهي أنك لا تحتاج لمشاهدة التليفزيون من أجل أن تعرف عنه أموراً كثيرة.

إن كثيراً من البالغين يظنون أن الأطفال يشاهدون التليفزيون أوقاتاً طويلة، في حين أن الإحصائيات تبين أن ذلك الوضع يختلف ويتفاوت طبقاً لدراسات عدة أجريت، وعلى الرغم من أن الإنسان قد ينظر إلى هذه الإحصاءات على أن بعضها يقلل من هذه المشاهدة كان هناك شبه إجماع على أن الأطفال الأمريكيين ينفقون كثيراً من الوقت أمام الشاشة الصغيرة.

أما تقديري أنا لهذا الموضوع (وهو للعلم مبني على تركيبات مؤلفة من بين تقديرات ومسوحات عدة) فهو أن الأطفال الأمريكيين «يشاهدون» التليفزيون بمعدل مقداره خمس أو ست ساعات يومياً، وأن الأطفال الأصغر منهم تكون مشاهدتهم أكثر ممن يكبرونهم، وسوف نفصل ذلك الأمر فيما بعد، وبخاصة فيما يتعلق بعبارة «مشاهدة التليفزيون».

أما الكبار الناضجون فإن هناك تقديراً معقولاً يقول: إنهم يشاهدون التليفزيون يومياً بمعدل أربع ساعات. والواقع أن مثل هذه التقديرات تخيفني.. لأنها تمثل «متوسطات Averages»، ولأننا نفترض كذلك أن هذه المتوسطات صحيحة أو دقيقة، حيث إنه في مقابل كل مشاهد معقول أو خفيف (المشاهدة)، أي يشاهد ساعة أو ساعتين يومياً، فإننا بالقطع سوف نجد أن هناك عدداً من المشاهدين الذين يشاهدون التليفزيون أوقاتاً طويلة جداً.

ولكن لماذا يقضي الكبار والصغار وقتاً طويلاً -هكذا- أمام جهاز التليفزيون..؟ لعل الإجابة عن هذا السؤال تأتي مما لاحظته في حالة أبنائي أنا. إن ابنتي «جيسيكا» قد جذبها ذلك الجهاز حتى قبل أن تكمل العام الأول من عمرها، فحينما كنا نتركها تتدحرج وحدها على أرضية الحجرة، ألاحظ أنها كانت تتدحرج باستمرار في اتجاه التليفزيون حينما يكون مضاء (مفتوحاً)، بل أكثر من ذلك أنها كانت بعد أن تتدحرج في اتجاهه.. كانت تركز عينيها عليه وتشاهده. لقد كانت هناك لعب أطفال كثيرة حولها في الحجرة، كما كان هناك من أفراد العائلة من يمكن أن تنجذب

إليهم، ولكنها تركت كل ذلك وتحولت إلى أسيرة لجهاز التليفزيون وأضوائه وصوره الملونة والمتحركة، كما يبدو أنها كانت مسرورة بالأصوات الصادرة منه.

إني أعتقد أنها كانت تشاهد التليفزيون لأنها أحبت ما رأت وما سمعت، وحينما تحققتُ من ذلك أعترف أنه قد سبب لي بعض الخوف، وإن كان ذلك قد ساعدني كثيراً جداً في فهم الحقيقة المتعلقة بكثرة مشاهدة الكبار أنفسهم للتليفزيون، إنهم -كذلك- ينجذبون إليه.. بل هم -في واقع الأمر- أسرى له، لأنهم يحبسون فيما يشاهدون.

إننا ينبغي علينا أن ندرك أن هناك أناساً أذكياء جداً، بل موهوبين حقاً لأنهم توصلوا إلى معرفة ما يجذب الناس للمشاهدة، وهؤلاء الأفراد هم الذين يقررون ما نشاهد على شاشات التليفزيون لأنهم يعلمون ما نريد وما نتحمل. وسوف نناقش هذا الجانب فيما بعد.

كذلك ساعدتني ابنتي الكبرى على أن أفهم: لماذا يقبل الأطفال بشغف وبكثرة على مشاهدة التليفزيون. إن إدارة مفتاح ذلك الجهاز العجيب تعد عنصراً جاذباً لهم أكثر من أي شيء آخر يمكن أن يفعلوه. إنني أعاني كثيراً من تقلب ابنتيَّ

الكبيرتين في مرحلة مراهقتهما المبكرة، وأعرف أنهما تميلان إلى كثرة مشاهدة التليفزيون، وبخاصة حينما تكونان مهمومتين وتشعران بالملل، ولا تحسَّان بأنهما في حالة طيبة. (إن كل الذين مروا، أو يمرون بتجربة تنشئة أطفال كبار في سن المراهقة يفهمون أن كل الأمور السابقة -الشعور بالهم والملل وعدم السعادة- يمكن أن يمر بها المراهق خلال ساعة واحدة في الوقت نفسه الذي ينقلب منها جميعاً إلى الإحساس بالطاقة غير المحدودة والفرح). . !!

إن هؤلاء المراهقين -بأحوالهم هذه- ما لم يتجهوا إلى التليفزيون - سوف يتجهون لأشياء أخرى في حياتهم. إن شبابنا يتجهون إلى التليفزيون ساعات قليلة بدلاً من أن يتجهوا لتلك الأشياء الأخرى يشغلون بها أنفسهم وأوقاتهم، إنهم بذلك يشغلون أيامهم، ويقضون معظم شبابهم، وهم يعيشون عن هذا الطريق حياتهم.

إن التليفزيون -في واقع الأمر- يقوم بعدد من الوظائف في حياة الطفل. . أي طفل، فهو يقوم بدور «جليسة الأطفال Babysistter» وهذا دور شائع له، ولا يطلب أي شيء في مقابل ذلك، يساعد الصغار والكبار على أن يسترخوا ويستريحوا ويهربوا من مشكلاتهم. إنه يلطف الجو

من حول الإنسان ويهدئه، ولكنه -في نفس الوقت- يجعلنا ننغمس في حياة الآخرين بدرجة كبيرة حتى إننا قد ننسى المواقف المؤلمة أو المشكلات المتعلقة بحياتنا نحن.

إن التليفزيون يمكن أن يشكل خلفية Background لكل شيء يقوم به الأطفال. وإنه صوت مؤنس في بيت موحش، وهو عنصر أمان لأطفال يكونون وحدهم. إنه يقدم للأطفال ما يريدون، وهو في الوقت ذاته يجعلهم يريدون ما يقدم. إنه يستجيب لحاجات كثيرة ومتنوعة عن طريق الرسوم الكرتونية المتحركة، أو عروض الألعاب، أو المسرحيات التليفزيونية التي تعالج المشكلات الاجتماعية Soap Opara، أو عروض الأحاديث المختلفة، أو المسلسلات التي يقوم بها رجال البوليس السري، أو من خلال المواقف الكوميدية الضاحكة.

إن النوعية الضعيفة لبرامج التليفزيون تثير اهتمامات كثير من الكبار الناضجين، حيث إن هناك إجماعاً بين النقاد على أن كثيراً جداً مما يعرض على الشاشة الصغيرة ليس طيب المستوى كما يشاهده أي إنسان، وهو -تأكيداً- غير طيب على الإطلاق للأطفال كي يشاهدوه. وأنا أتفق مع هذا الإجماع.

إن أفضل طريق لتجميع الجماهير من المشاهدين هو أن يستجيب التليفزيون لحاجات المستوى الأقل من الطبقة الوسطى The Low Middle Class وأن يقدمها لهم وهو آمن (من نقدهم). وهناك الكثير من الأدلة على أن صناعة التليفزيون قد نجحت في هذا، ومن أوضحها العدد الهائل من مشاهدي الطبقة الوسطى الذين يتجمعون حول أجهزة التليفزيون.

إن التليفزيون يقدم لنا كمّاً هائلاً من برامجه كل يوم، بمعدل ١٨ ساعة يومياً، على مدار ٣٦٥ يوماً.. أي طول العام، وكل هذا تتنافس فيه محطات الإرسال الرئيسية وشبكات التليفزيون (السلكي) Cable*. وإذا ما فكرنا بواقعية في هذا الكمّ الهائل من ساعات الإرسال التليفزيوني فإنه لا يمكن أن نتوقع أن يكون كل ما يعرضه التليفزيون جيد النوعية.

وعلى كل حال فمعظم الكتب التي تنشر خلال عام هي

* وهذه شبكات خاصة لا يصل إرسالها للمشاهدين إلا لمن يشترك فيها، ويسدد قيمة الاشتراك شهرياً، بعد توصيل شبكتها لجهاز التليفزيون، وبها كم هائل من البرامج السياسية والاجتماعية والرياضية والأخبارية.. وغير ذلك مما يحسن عدم ذكره لشناعته..!! المترجم.

في الواقع غير جيدة، كذلك قطَعُ الموسيقى والفن المنتج خلال عام هي أقل من أن تذكر أَو تتذكر. وفي أي الأحوال الحقيقة التي لا يمكن إغفالها هي أن التليفزيون حاضر في حياتنا، وهو متاح دوماً وجزء أساسي في حياة أطفالنا، وهم يشعرون أنه جذاب لهم جداً، بصرف النظر عما نعتقده نحن من حيث نوعية برامجه، والأطفال يشاهدونه بكم هائل من الساعات التي تسترعي الانتباه.. كل يوم.

ماذا يقلق المعلمين في موضوع التليفزيون والأطفال؟

إن المعلمين يشاطرون أولياء الأمور قلقهم وهمومهم بشأن طبيعة التليفزيون المنتشرة بشدة، وبشأن قدرته على جذب المشاهدين وإبقائهم أمامه، وكذا بشأن نوعية برامجه.

وبعيداً عن هذه الملاحظات العامة، وأعمق منها، نجد أن المربين ينظرون إلى التليفزيون على أنه مشكلة حقيقية في حياة الأطفال في أمور واضحة ومحددة، أمور تتعلق بالتعلم وبالتفكير، فمدرسو المرحلة الابتدائية خاصة يشتكون من أن تلاميذ مدارسهم لا يمكنهم الجلوس هادئين في فصولهم هذه الأيام، وأن فترات انتباههم قد أصبحت أقصر كثيراً مما كانت

عليه قبل ذلك، إضافة إلى أن هؤلاء الأولاد الصغار قد أصبح أمر السيطرة عليهم من الصعوبة بمكان، كما أن ضبطهم والسيطرة عليهم في الفصول بات مختلفاً عن ذي قبل. والواقع أن هذه الادعاءات تستحق المناقشة، كما أن اللوم الذي ينبغي أن يوجه للتليفزيون بخصوصها ينبغي معرفة مدى عدالته.

إن نفراً قليلاً من المعلمين الذين ألتقي بهم متأكدون أن الأطفال ذوي فترات الانتباه القصيرة في الفصول هم الذين يربطون بينها وبين مشاهدتهم الكثيرة للتليفزيون. وعلى وجه اليقين واجبات المدرسة تتطلب نوعاً من الانتباه يختلف عما تتطلبه مشاهدة التليفزيون، كما أشرح للمعلمين في بعض الأحيان فإنه ليس هناك من يتوقع منهم أن ينافسوا التليفزيون.

ورغم ما سبق إذا كان الأطفال أقل انتباهاً هذه الأيام، فإن هذا السلوك ربما لا يكون له علاقة بقدراتهم على الانتباه، وحتى لو استطعنا أن نثبت -من خلال البحث- أن الأطفال اليوم قد أصبحت قدرتهم على الانتباه أو التركيز أقل مما كانت عليه من قبل، فإن إثبات أن ذلك راجع في أساسه إلى التليفزيون قد يكون من الصعوبة بمكان، وهذه

مشكلة يعاني منها المعلمون لأنها ظاهرة موجودة بالفعل، وإنه لمن الأمور الشائعة في مثل هذه الحالات أن يلقى اللوم على التليفزيون. إن المعلمين الذين يلومون التليفزيون يعتقدون أنهم مواجهون بظروف خارج إرادتهم وبعيداً عن سيطرتهم، ومن هنا يكونون غير قادرين على مواجهة المشكلة الحقيقية وعلى التعامل معها.

همٌّ آخر ومشغلة من هموم والمعلمين وشواغلهم يتعلق بأثر التليفزيون ومشاهدته في التحصيل المدرسي، فمع البدايات المبكرة للخمسينيات ظهرت سلسلة طويلة ومتتابعة من الدراسات التي حاولت أن تستكشف أثر مشاهدة التليفزيون في التحصيل الدراسي، وذلك كما تظهره درجات الطلاب في الامتحانات المقننة التي تعطى لهم.

أما وجهة نظري في نتائج هذه الدراسات فهي أنها ليست بالصورة الرائعة التي تحدث عنها البعض، وربما يكون الأمر الذي يستحق التسجيل هو أنه كيف يمكن تفسير تلك النتائج، وكيف يمكن أن يستفاد منها بطرق مختلفة معتمدين على تحليل النتائج التي يقوم بها مكتب المعلومات الخاص بالتليفزيون Television Information Ofice، أو خدمات

الاختبار التربوية Edicational Testing Service، أو من خلال اللجان الحكومية.

إنه أن يقال إن الأولاد والبنات الذين يشاهدون التليفزيون كثيراً وبصفة منتظمة لا يحصِّلون تحصيلاً دراسياً جيداً مثل الأولاد والبنات الذين يشاهدون التليفزيون بدرجة أقل، يعد قولاً مقبولاً، ولكن أن نعمم حكماً واحداً على الجميع فذلك أمر يصعب قبوله.

وعلى سبيل المثال هل سندهش إذا وجدنا أن الأولاد والبنات الذين يتحدثون على التليفون يومياً ست ساعات يكون تحصيلهم الدراسي أقل من نظرائهم الذين يقضون وقتاً أقل من ذلك في أحاديثهم التليفونية..؟

ومن جانبي أعتقد أن معظم التربويين سوف يوافقون على أن مستوى التحصيل الدراسي في هبوط نوعاً ما، ولكن أن نتجه، فوراً وببساطة، لإلقاء اللوم على التليفزيون، أو على الأقل لإلقاء معظم ذلك اللوم عليه، فذلك أمر غير منطقي وغير معقول.

إن الذي أمامنا هو حالة لظاهرة معينة نلاحظها، وهي تحتاج إلى بحث متعمق يصل بها إلى تفسير: إن كثرة

مشاهدة التليفزيون يمكن أن تفسر لنا -جزئياً- تدهور التحصيل الدراسي، بالضبط كما نربط بينها وبين الإفراط في مشاهدة التليفزيون والذي يعد عاملاً مسهماً في عديد من المشكلات الأخرى، داخل المدرسة وخارجها.

وما يعنينا هنا -على أية حال- هم أولئك الأشخاص الذين يعتقدون أننا لو استبعدنا التليفزيون أو ألغيناه كلية من حياتنا فإن هذه المشكلات المعقدة، مثل مستوى التحصيل الدراسي المتدهور، سوف تجد لها حلاً فورياً.. !!

وعلى ذلك قد نسأل هذا السؤال المباشر: ما الذي سيحدث لو أن التليفزيون سُحب فجأة من منازل معظم طلاب المدارس الذين يدمنون مشاهدته..؟

- هل سيعاد ترتيب حجرة التليفزيون المخصصة لمشاهدته كي تصبح حجرة تغص بالكتب المعدة للاطلاع والتثقيف..؟

- هل ستحل مجلة الجمعية الجغرافية الشهيرة محل مجلة «دليل التليفزيون»..؟

- هل سنجد أن الآباء الذين فقدوا سيطرتهم على توجيه أبنائهم قد استعادوا هذه السيطرة التي سرقتها منهم محطات

التلفـيـزيون الرئيـسـيـة CBS, NBC, and ABC وتولت السيطرة على عقولهم واتجاهاتهم . . ؟

– وهل بدون التليفزيون يتـحول الطلاب المدمنون على مشـاهدته إلى طلاب مجدين في تأدية واجباتهم المدرسية ، وهل يتـجهـون بذواتهم إلى النشـاطات العقلية وغيـرها من أوجه النشاط الأخرى . . ؟

– أم أن الأولاد والبنات الذين سـمح لهم بأن يهـبـوا أنفسهم كلية للتليفزيون سوف يكونون أحراراً في أن يفعلوا الشيء نفسه مرة أخرى . . وباختيارهم هذه المرة . . ؟

– هل يمكننا بأمانة أن نفترض أن الأطفال سيكونون في حالة أفضل ، في مدارسهم ، بدون التليفزيون . . ؟

– هل من المعقول والمناسب أن نلوم التليفزيون على كل أنواع التـدهور الحـادثة في المدارس ، على الرغـم من أن ذلك اللوم قد يريح البعض منا ، بل إنـهم يرتاحون له ويميلون إليه حقاً . . ؟

إن المعلمين –بالمثل– لديهـم همـوم كـثـيـرة تتـعلق بآثار التليـفـزيون في أطفـال اليـوم ، وعلى الطريقة التي يفكر بهـا البنون والبنات ، بل على ما يفكرون فيه . وسوف نتعامل مع

هذا الجانب الخاص بأثر التليفزيون في ما يفكر فيه الأطفال في جزء لاحق. أما الآن فسوف نتعامل مع انشغال المعلمين بموضوع الطريقة التي يفكر بها البنون والبنات وأثر التليفزيون فيهم في ذلك.

إن بعض المراقبين يدعون أن التليفزيون، هو في حقيقة الأمر مغير للطريقة التي يفكر بها الأطفال، كما أنه يتدخل في الطرق التي هم قادرون بها على التفكير. كذلك يقول المعلمون: إن أطفال اليوم يفكرون بطريقة مختلفة، وهم لا يخفون انشغالهم بخصوص أن الأطفال أقل قدرة ورغبة في التفكير بالطرق التي تريدها المدرسة.

ولكي نفترض أن التليفزيون قد غير طريقة تفكير الأطفال، ثم غير الطريقة التي كان من الممكن أن يتعلموا بها، لكي نفصل ذلك لا بد أن نفترض أن هناك عدداً من الأسئلة قد أجيب عنها بالقطع.

فمبدئياً، لكي نرى صحة هذه الادعاءات، لا بد أن نكون قادرين على أن نحدد كيف يفكر الأطفال، وكذلك أن نميّز بين طريقة تفكيرهم اليوم، وطريقة تفكيرهم قبل ذلك (أي قبل أن يتعرضوا لتأثيرات التليفزيون)، كما أننا ينبغي أن

نكون قادرين على شرح كيفية تعلم الأطفال، وعلى فهم وتوضيح كيفية حصولهم على المعلومات المحددة الخاصة ببيئاتهم التي يعيشون فيها ويترعرعون.

ولعله يكون من المعقول افتراض أن الإجابة عن كل هذه الأسئلة، وعلى عشرات غيرها تتطلب نظريات متنافسة فيما بينها، فعن تعليم القراءة، على سبيل المثال، نجد أن المربين يحدثوننا عن نظريات تشرح لنا كيف يتمكن الطفل من مجرد القراءة.. ثم كيف يقرأ بعد ذلك بيسر.

إن البحث التربوي قد قدم عدداً من الرؤى الصائبة حول كيفية تعلم الأطفال أثناء نمو تفكيرهم، وكيف أنهم يتعلمون بعض الأشياء، ولكننا ينبغي أن نعترف أننا على وجه اليقين لا زلنا بعيدين عن معرفة كيفية حدوث التفكير ذاته، إني لست واثقاً من أننا نعرف ما ينبغي معرفته، أو ما نود معرفته عن كيفية تعلم الأطفال، وعلى ذلك أنا غير متأكد من أننا كنا نقف على أرض صلبة أم لا، حينما نعمم في موضوع الطريقة التي يفكر بها الأطفال والتي بها يتعلمون.

وأكثر من ذلك وأبعد ما نعرفه عن التفكير والتعلم في حالات الأطفال إنما يعتمد على عدد غير قليل من العوامل

المتداخلة، من أوضحها لنا محتوى ما يتعلمونه ومن يقومون بهذا التعليم.

ومن هذا المنطلق أدعو إلى الحذر من التسليم بأي تأكيدات حول كيفية حدوث أي تغيير في كيفية تفكير الأطفال وتعلمهم بصفة عامة، حتى وإن كانت هذه التأكيدات عالمية الصبغة. إن الجري وراء فكرة حدوث تغيير في تفكير الأطفال وتعلمهم بسبب التليفزيون هو في الواقع أبعد ما يكون عن الإثبات أو التحقق منه بواسطة شواهد علمية، وربما هو أبعد من التفسيرات المنطقية.

وعلى الرغم من كل ما سبق يبدي كثير من المعلمين تخوفهم من أن يكون التليفزيون مفسداً لعقول الشباب الصغار ومضيعاً لهم، ولكني من جانبي أستطيع ادعاء أن جيل الشباب اليوم، أو ما اصطلح على تسميته «بجيل التليفزيون» ليس مختلفاً كثيراً عن ذلك الجيل الذي سبق ظهور التليفزيون أو الأجيال السابقة على ظهوره.

وحتى بعد أن ظهرت بعض التغيرات الواضحة، لا أشعر بالراحة لو نسبتها إلى سبب واحد وأرجعتها إليه، لأن فعل ذلك سوف يدل على قصر في النظر، كما أنه لن يكون

مفيداً في المدى البعيد، والسبب في ذلك هو أنه لو كان أطفال اليوم مختلفين -حقاً- في قدراتهم التفكيرية والتعليمية، أي في قدرتهم على التفكير وعلى التعلم، وإذا كان التليفزيون -حقاً كذلك- هو المسؤول الأول عن ذلك الجانب السلبي، فإننا نكون بعيدين جداً عن البحوث التي ينبغي أن نقوم بها مساعدة للمعلمين في التغلب على هذه الفروق.

إننا نلوم التليفزيون وننسب إليه كل مشكلات التعليم، ونلعن قنواته باستمرار، وبفعلنا ذلك نساعد التربويين على أن يديروا ظهورهم ويغلقوا عقولهم في مواجهة عوامل أخرى كان عليهم أن يتفكروا فيها، وأن يعملوا فيها عقولهم بدرجة أكبر. إننا قد نراجع أنفسنا ذات يوم ونجد أننا كنا مخطئين، وحينئذ قد نكتشف أننا لم نتوصل إلى معرفة أطفالنا المعرفة الكافية التي يتوجب علينا أن نعرفها، وحينئذ سنكتشف حقاً أن معرفتنا بالتليفزيون وأثره في قدرة الأطفال على التعلم والتفكير هي على وجه اليقين أبعد ما تكون عن الحقيقة، وأبعد مما يدعي البعض أنهم يعرفون.

إننا لو لجأنا إلى شيء من التحليل الموضوعي بعقول مفتوحة، فيما يتعلق بأثر التليفزيون في الأطفال، إذا ما فعلنا ذلك حقاً فإننا قد نكتشف -في ذلك اليوم- أن التليفزيون هو جزء من الحلول التي يمكن أن تساعد في حل مشكلة تعلم الأطفال. إننا حين نركز أحاديثنا على الجوانب السلبية فقط للتليفزيون، وحين لا نرى فيه إلا قوة تضعف من تفكيرهم، حين نفعل ذلك -في الواقع- نجهض الفكرة السابقة، أي الاستفادة من التليفزيون عنصراً مساعداً في تعلم الأطفال.

obeikandl.com